٧٧
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الخامسة ـ العدد التاسع (صفر ـ رجب ١٤٤٦)

علاقة الأخلاق بالدعاء في الصحيفة السجادية الشريفة

علي مهجور[١]

الخلاصة: يناقش الكاتب علاقة الاخلاق مع الدعاء في الصحيفة السجاديّة على اساس عدّة محاور مثل التوحيد،التفاعل مع الآخرين،سلوك الانسان مع نفسه،آداب الدعاء، المسؤليّة الاجتماعية،سيرة الامام السجاد عليه السلام

المفردات المفتاحيّة: الصحيفة السجاديّة؛ الاخلاق؛ الامام السجاد عليه السلام؛ الاخلاق الفردية؛ الاخلاق الاجتماعيّة؛ التوحيد؛ آداب الدعاء.

---

١. محقق وكاتب وأستاذ مساعد في مؤسّسة (انديشه ديني معاصر).

١- المحصّلة

الصحيفة السجاديّة الشريفة باعتبارها تراثاً مقدساً وكتاب دعاء ومناجاة لها علاقة وطيدة متعددة الأبعاد وصلة وطيدة غير قابلة للفصل والتفكيك عن الأخلاق الفاضلة. ولابدّ من القول أوّلاً؛ أنّ محتويات كثير من نصوص أدعية ومناجيات هذا الكتاب الجليل ناظرة إلىٰ البعد الأخلاقي الرفيع، يعني أنّ الداعي والمناجي ربّه المتعال وما يسأله ليس سوىٰ الفضائل الأخلاقية .. وثانياً؛ أنّ الداعي بأدعية هذه الصحيفة المقدّسة وطبيعة تقدّمه بالسؤال إلىٰ بارئه تبارك وتعالىٰ إنّما يدعوه بأسلوب أخلاقي وأدبٍ سامٍ، وذلك بما أختزله من نصوص أدعية الصحيفة من قواعد أخلاقيّة وأدبيّة فذّة. وثالثاً؛ أنّ مضامين الأدعية والمسائل لا تعكس أموراً شخصيّته ومنافع فرديّة بحتة يتقدّم بها السائل، بمقدار ما هي انعكاس لطبيعة موقفه ومسؤوليته تجاه فصيلته ومجتمعة؛ وانطلاقاً من البعد والمسؤوليّة الأخلاقيّة.. وهكذا كان ممّا يتقدّم به الداعي بأدعية الصحيفة السجادية المباركة، وهي المسماة - زبور آل محمد صلى الله عليه وآله الكرام - أن يطلب التوفيق الإلهي العميم للآخرين من إخوانه المؤمنين .. هذا بالإضافة إلىٰ طبيعة التعرّف والتأكّد بأنّ الصحيفة هذي تعكس مكانة الإمام السجاد عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليهم باعتباره صاحب هذا السِفْر الأجلّ ومدىٰ علاقته؛ بل وانبثاق الأصول الأخلاقية السامية عنه في التزام ومراعاة الأخلاق في المناجاة و الدعاء إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ. وهذه المقالة تعالج أربع مسائل؛ ساعيةً إلى إلقاء مزيد من الضوء علىٰ طبيعة العلاقة بين الأخلاق والدعاء؛ انطلاقاً من مضامين الصحيفة السجادية المباركة.

٢. المحتوىٰ الأخلاقي في الأدعية والمناجيات

كل دعاء وارد في الصحيفة السجّادية المقدّسة له محتوىٰ أخلاقي فضيل، ولكنّ الأدعية متفاوتة - بطبيعة الحال - فى كيفيتها وشكلها ومحتواها الاخلاقي ... فبعض من أدعية هذا الكتاب الشريف ذو صبغة توحيدية تامّة، حيث لم يتحدّث الإمام السجّاد عليه السلام إلّا عن الله سبحانه وتعالىٰ .. و بعض آخر تناول فيها عليه السلام كيفية وأبعاد العلاقة بين الداعي والعالم والآخرين .. وفيها سأل الإمام عليه السلام ربّه أموراً تشير إلى آفاق

علاقة الإنسان بالأفراد. وكذلك ثمّ أدعية أخرىٰ تضمّنتها الصحيفة السجادية أختصّت بالأمور الفرديّة البحتة، وفيها يتناول الداعي مسائل خاصة به - الداعي - دون غيره من الأفراد. وهذه الأنواع الثلاثة من المسائل والأدعية تارة تتوفّر جميعاً في دعاء واحد، و تارة يختصّ كل الدّعاء بواحد من هذه المضامين.

٢-١: الله (جلّ جلاله) في الصحيفة السجّاديّة ....

يجري - في الصحيفة السجّاديّة - وصف الله تبارك وتعالى بأسمائه و صفاته؛ وكذا بأفعاله وخلقته و إيجاده للأشياء، فيتمّ حمده عليها .. و كنموذج؛ ترانا نقرأ في أوّل دعاء ورد في الصحيفة:

«الحمد لله الأوّل بلا أوّل كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعَجَزتْ عن نعته أوهام الواصفين، ابتدع بقدرته الخلْقَ ابتداعاً، واخترعهم علىٰ مَشِيَّته اختراعاً»

فكان دعاء الصحيفة السجّاديّة الأول هذا بمثابة إحصاءٍ وذكرٍ لصفات الله تعالىٰ، فوصف العالم والوجود برمّته بكونه خَلْقاً إلهيّاً، ثم تناول - هذا الدعاء- شيئاً من بيان أمور هذا العالم، بدءاً من الحياة التي وهبها سبحانه لجميع الأحياء، مروراً بالرزق الذي أعطاه إياها، إلىٰ القدرة والقوة والقابلية التي وهبها الله لنّا لنحرّك بها أعضاءنا وجوارحنا.. لنتمكّن بها من التوبة إلىٰ محضره الجليل إن نسينا وغفلنا عن التوجه بالشكر عليها... و هذا التوصيف، وفضلاً عن كونه بياناً للصفات والأسماء الإلهيّة، فهو يعتبر تلويحاً بجملة أمور متعلّقة بما ينبغي أن تكون عليه علاقة الإنسان بربّة المتعال... وفي الحقيقة؛ فإنّ مولانا الإمام عليّ السجاد عليه السلام وضمن هذا التوصيف قد أعطىٰ درساً في معرفة الله تبارك وتعالىٰ لجميع من هو مخاطبٌ بهذا الكتاب وكلماته وعباراته الكريمة.

وفي خاتمة هذا الدعاء نفسه، رأينا الإمام نفسه يتوجّه إلىٰ الله بالحمد والثناء، فيقول:

«والحمد لله بكل ما حمده به أدنىٰ ملائكته إليه وأكرم خليقته عليه، و أرضىٰ حامديه إليه، حمداً يفضل سائر الحمد كفضل ربّنا علىٰ جميع خلقه، ثم له الحمد مكان كل نعمة له علينا وعلىٰ جميع عباده الماضين والباقين عدد ما أحاط به علمه من جميع

الأشياء ومكان كل واحدةٍ منها عددها أضعافاً مضاعفة أبداً سرمداً إلىٰ يوم القيامة»

فالإمام عليه السلام؛ وضمن هذا الإطار من الحمد والثناء يوجّه أنظار المخاطبين بهذا الدعاء الكريم إلىٰ مسألةٍ مهمّة للغاية، وهي: أنّ ما مِن حمدٍ وثناء يمكن أن يعدِلَ و يجير النعم الإلهيّة.. وبالتالي؛ فإن الإنسان له أن يحمد.. وما حمْدُه إلّا مسألة تعود على الإنسان نفسه بالفائدة والربح علىٰ ربّه المتعال، لا أن حمده وثناءَه في قبال جبر النعم والهبات الربّانيّة.

و نموذج آخر ... الدعاء التاسع من أدعية الصحيفة، وفي إحدىٰ عبائره التي وردت ضمن عنوان: «الاشتياق إلىٰ طلب المغفرة» حيث قال الإمام عليه السلام:

«...و إذا همَمنا بهمَّينِ يرضيك أحدُهما عنّا؛ ويسخطك الآخر علينا، فَحِلْ بنا إلىٰ ما يرضيكَ عنّا، وأوْهِنْ قوَّتَنا عمّا يُسخطك علينا».

وهذا المقطع من الدعاء التاسع الوارد ضمن أدعية الصحيفة السجادية المباركة، هو في الحقيقة درسٌ اخلاقي جليل، و يعلّمنا الإمام عليه السلام من خلاله كيفية مراعاة جانبٍ يتمّ فيه اختيار رضوان الله تعالىٰ وتحرّي مرضاته لدىٰ التعارض الأخلاقي.. ومواصلة في هذا المقطع، جرت الإشارة إلى طبيعة ما ينبغي أن يُطلب من البارئ تبارك وتعالىٰ، وهو: ضبط الأخلاق وحُسن الاختيار و تقديم ما يرضي ربَّنا على ما سيخطه... قال عليه السلام:

«ولا تخل في ذلك بين نفوسنا و اختيارها، فإنّها مختارةٌ للباطل إلّا ما وفَّقتَ؛ أمّارةٌ بالسوء إلّا ما رحمتَ»

وهذا المقطع الشريف يشير بدقّة بالغة إلىٰ أنّنا ملزمون باختيار مسار التوكّل علىٰ ربّنا المتعال فيما تتيح لنا الحياة، لنتمكّن من السيطرة وضبط ميولنا النفسانيّة إلىٰ ما يسوقنا نحو الأخطاء والمساوئ... فيكون لنا بذلك اختيار صائب... و بهذا القبيل من الأدعية تكون قد تمّتِ الإشارة إلىٰ صفات الله المباركة، مضافاً إلىٰ ما ينبغي أن تكون عليه علاقتنا بربّنا سبحانه وتعالى.

و ثَمّ أدعية أخرى وردت في الصحيفة السجّاديّة المباركة، مما يطيل ذكرها المقام بنا.. ولكن لابدّ من الإشارة إلىٰ أنّ ممّا يلزم القارئ الكريم الرجوع إليه، وهو أنّ الدعاء

الخاصّ بيوم عرفة، وهو الدعاء السابع والأربعون من مجمل أدعية الصحيفة السجّاديّة .. إذ هو مفعم طافح بمعرفة الله و التوحيد.. باعتبار أنّ يوم عرفة هو يوم معرفة الله عزّ وجلّ.. ومن هنا؛ وجدنا الإمام زين العابدين عليه السلام قد تناول في دعاء يوم عرفة وبدقّة ما بعدها دقّة صفات الله سبحانه ليتمكّن كلّ قارئ لهذا الدعاء الشريف - وحسب قابليّته - من الاقتراب من ربّه العظيم...

٢-٢: كيفية التعامل مع الآخرين في الصحيفة السجّاديّة

شطر آخر من أدعية الصحيفة اختصّ بطبيعة علاقاتنا نحن البشر فيما بيننا والدنيا التي نعيش حياتنا فيها. إذ أشير في هذا النوع من الأدعية إلى وظائفنا تجاه الأفراد القريبين منّا والبعيدين عنّا وكذا تمّ التلويح إلىٰ ما يلزم أن يكون عليه سلوكنا وكيفية الاهتمام والتفكير بالآخرين.. وكمثال، وجدنا في مقطع من مقاطع الدعاء الخامس، وعنوانه: «الدعاء لذوي القربي» حيث قال عليه السلام:

«اللّهمّ أغننا عن هبة الوهّابين بهبتك، واكفنا وحشةَ القاطعين بصلتك؛ حتّىٰ لا نرغبَ إلىٰ أحدٍ معَ بَذْلِكَ، ولا نستوحِشَ من أحدٍ مع فضلِكَ»

إن المقطع السابع من الدعاء الخامس هذا يعلّمنا - تلويحاً - بأنه وبدلاً عن الاعتماد علىٰ الناس وعوضاً عن توقّع الإحسان منهم، يجب أن نتربّا علىٰ التوكّل على الله تعالىٰ فحسب وتوقع الإحسان منه.. وهذا المقطع أيضاً يشير إلىٰ أنّ كل خير وإحسان يصلنا من الناس هو في الحقيقة خير وإحسان من الله تعالىٰ في الأصل، لأنّه سبحانه هو منشأ الخير والإحسان.. ومقطع آخر من هذا الدعاء قد جرىٰ التأكيد علىٰ هذا المطلب ولكن بإيضاح آخر.. فقال سلام الله عليه:

«اللهمّ إنّک مَن واليتَ؛ لم يضرُّه خذلان الخاذلين، ومَن أعطيتَ؛ لم ينقصْهُ منعُ المانعين، ومَن هديتَ لم يغوِهِ إضلالُ المُضلّين»

وليس السنخ هذا من أدعية الصحيفة محدوداً بهذه المضامين، لا سيّما وأنّ الإمام السجاد عليه السلام موكول إليه مسؤوليات اجتماعية عظيمة، لأنه هو الإمام.. لاحظوا المقطع الوارد

في الدعاء الرابع عشر، إذ كان عليه السلام يدعو بهذا الدعاء كلّما وقع عليه ظلم من ظالمٍ:

«يا مَن لا يخفىٰ عليه أبناء المتظلّمين! ويا مَن لا يحتاج في قصصهم الىٰ شهادات الشاهدين! و يا مَن قَرُبتْ نصرتُه من المظلومين! ويا مَن بَعدَ عونه عن الظالمين!»

وهكذا يخاطب عليه السلام ربّه المتعال.. وهو بصدد بيان مسألة مهمة ودقيقة في باب الظلم والظالمين... والدعاء هذا يوحي بأنّ الظالم مهما أمعن وتظاهر بالظلم علىٰ الضعفاء و مهما أضرّ بمظلوم.. إلّا أنّه سبحانه وتعالىٰ سيعاقبه من جهة؛ وينصر المظلوم من جهة أخرىٰ، سواء على صعيد الدنيا أو على صعيد الآخرة.

وإنّ نتيجة هذه الرؤية والبصيرة في الله تعالىٰ وإليه - كما ستبيّن مقاطع الدعاء التالية - أنّ الإمام عليه السلام لا يطلب الانتقام إزاء الظلم والظالمين من الله عزّوجّل، وإنّما هو - عليه السلام - وطلبه وغايته؛ تكريس مكارم الأخلاق.. وقد ورد في المقطع السابع والثامن من هذا الدعاء:

«اللّهمّ وصلّ على محمد وآله؛ ولا تسوّغْ له ظلمي، وأحسن عليه عوني، واعصمني مِن مثل أفعاله، ولا تجعلني في مثل حاله. اللّهمّ صلّ على محمدٍ وآله؛ وأعدني عليه عدوىً حاضرة؛ تكون من غيظي به شفاء؛ ومن حَنَقي عليه وفاء».

إنّ مكارم الأخلاق في هذا الإطار بمعنىٰ أنّ أسمىٰ ردّ فعلٍ انساني يمكن أن يظهر إزاء الظلم هو ما يمكن أن يُستثمر للارتقاء بسطح ومستوىٰ الأخلاق الإنسانية الوارد الحديث عنها في منظومة رؤىٰ وبصائر الإمام السجّاد عليه السلام وهي المنظومة التي تؤدّي الى التخلّق بأخلاق الله تبارك وتعالىٰ، حيث ليس ثَمّ ما يسمّىٰ بالانتقام والحقد علىٰ العدوّ الظالم، وإنما المطلوب هنا هو النأي بالنفس والسلوك عن التشبّه بمسلك الظالم و منطلقاته الباطلة... أماّ مكارم الأخلاق، فتضغي إلى التورّع عن الحقد والانتقام، والاستعاضة عنها بالعدالة والإحسان، وربما إلىٰ الظالم نفسه.. و في الحقيقة، إنّ هذا السلوك الكريم الرائع سيكون بمثابة فرصة رائعة للارتقاء والتعالي الأخلاقي.. والواقع هو أنّ النصرة التي يتفضّل بها الله الخالق علىٰ العبد المخلوق، و طلب الإمام عليه السلام من الله العلي العظيم ليس إلّا

التوفيق إلىٰ ضبط النفس والتحكّم بالغضب والابتعاد عن الرغبة في الانتقام، كما صرّح الإمام بذلك في المقطع التالي:

«اللّهمّ... عوّضني مِن ظلمه لي عفوك، وأبدلني بسوء صنيعه بي رحمتك، فكلّ مكروه جللٌ دون سخطك، وكل مرزئة سواء مع موجدتك»...

وفي أدعية أخرىٰ واردة عن الإمام زين العابدين عليه السلام يطلب فيها من ربّه المتعال ليجعل من علاقته بالناس علاقة طيّبة.. وفي أمثال هذه الأدعية تؤكّد لنا أنّ العلاقة الطيّبة مع الناس، هي العلاقة البعيدة عن الحقد والحسد والبخل والتربّص بهم واستغلالهم، وهي تلوّح لنا بالضمن أنّ العلاقة الحسنة بالآخرين هي العلاقة المجرّدة عن الغرور و التكبّر والشعور بالأفضلية، لأنّ هذه الرذائل من شأنها التأسيس للنزاع والخصام و الخلاف. وكلّ ذلك آفات مدمّرة للعلاقة والمعاشرة فيما بين الناس. و كنموذج علىٰ ذلك، يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق:

«اللهم صل على محمد وآله وأبدلني[1] مِن بِغْضَةِ أهلِ الشَنآن المحبّة، ومن حسد أهلِ البغي المودّةَ، ومن ظِنَّةِ أهلِ الصلاح الثقة، ومن عداوة الأدْنَين الولايةَ، ومن عقوق ذوي الأرحامِ المبرّةَ، ومن خِذلان الأقربين النُصرة، ومن حُبّ المدارين تصحيحَ المِقَة، ومن ردّ الملابسين كرمَ العِشرة، ومن مرارةِ خوفِ الظالمين حلاوةَ الأَمَنة»

واضح أنّه إذا كانت همّة الإنسان تغيير دفّة العلاقة من الناس نحو اليسر والصلاح والتجرّد عن الحقد والكدر والتأزّم والتعقيد، فإنه سيطلب من الله تعالىٰ نظائر ذلك.. ويتّضح من عبائر دعاء مكارم الأخلاق أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كيف كان يهدف إلى توطيد العلاقة الطيبة مع الآخرين.. وكذا كان عليه السلام يستهدف أن تكون العلاقات بين الناس على هذا المنوال... و إنّ أدعية الصحيفة المماثلة هي في الواقع تمثّل - في الواقع - مصباح هداية لطريق الأخلاق الفاضلة ومسار العمل.. و بمساعدة هكذا أدعية يمكن فهم أنّ المراد من الأخلاق الدينية لا تعتمد - فحسب - القراءة الفقهيّة لصناعة مجتمع ذي قطبين، لنكون إخوة من جهة وأعداءً من جهة ثانية، بل إنّ الأخلاق المتبنية

١. كأنّما يقول عليه السلام: هذه الخصائص التي أحصيها، هي في أناس لي معهم علاقة

علىٰ قواعد الصحيفة السجادية هي أخلاق التضامن والتعاطف والتكافل والتقارب و المداراة.. وهي أخلاق يمكن أن نستبدل في رحابها كل أشكال التخاصم بحقائق التكافل والتعامل والتناصر...

وكذلك يسأل الإمام السجاد عليه السلام ربّه المتعال في جملة من الأدعية التوفيق إلىٰ العمل بوظائفه تجاه الآخرين بأحسن وجه.. فأدعية مثل الدعاء للأولاد فأدعية مثل الدعاء للأب وللأم، و والدعاء للأولاد، والدعاء للجار - هي أدعية من هذا القبيل.. وكمثال، وجدناه عليه السلام يطلب في عبائر من الدعاء الرابع والعشرين الوارد في الصحيفة السجادية المقدّسة يطلب التوفيق الى التزام الأدب والاحترام والسلوك الصالح إزاء أبيه وأمه، فيقول:

«اللّهمّ خفِّض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي، وألِن لهما عريكتي، و أعطفْ عليهما قلبي، وصيّرني بهما رفيقاً، وعليهما شفيقاً. اللّهمّ اشكر لهما تربيتي، وأثبهما علىٰ تكرمتي، واحفظ لهما ما حفظاه منّي في صِغري، اللهمّ وما مسّهما منّي من أذًى، أو خَلَصَ إليهما عني من مكروه، أو ضاع قِبلي لهما من حقٍّ، فاجعله حِطَّةً لذنوبهما وعلوّاً في درجاتهما وزيادةً في حسناتهما، يا مبدّل السيّئات بأضعافها من الحسنات....».

ان هذه العبائر تعلّمنا - تلويحاً - كيف نتعامل ونتصرّف تجاه آبائنا و أمهاتنا. والإمام عليه السلام - في حقيقة الأمر - لا يعلّمنا كيفيّة الدعاء للوالدين فحسب، بل إنه عليه السلام يبيّن لنا الطريقة الصائبة والسليمة في كيفية سلوكنا تجاههما ضمن إطار من الدعاء.. وحيث أنّ الدعاء عبارة عن حوار خاصّ بين الإنسان وربّه سبحانه وتعالى، و حيث أنّ الإنسان يعتبر الله تعالىٰ المستمع الوحيد له في مناجاته إياه، والمستجيب له طلباته و مسائله.. فإنه يمكن لهذا الدعاء - هذه القاعدة والوسيلة الإيمانيّة والسلوكيّة - أن يكون عامل تربية فذّة في إطار مواقفنا وتصوراتنا إزاء الآخرين. وقد اتّضح اليوم لجميع المتخصّصين الأخلاقيّين والتربويّين والنفسانيّين أنّ أحد أهمّ سبل ووسائل الإصلاح، الإصلاح الذهني وإصلاح الرؤىٰ والمشاعر والأحاسيس.. وكنموذج، هو عبائر الدعاء المخصوص بالأب والأم، حيث يذكّرنا بكيفيّة ضبط مشاعرنا وأحاسيسنا إزاء الأب والأم ...

وجاء في المقطع التاسع من الدعاء للوالدين:

«اللّهمّ وما تعدّيا عليّ فيه من قول؛ أو أسرفا عليّ فيه من فعل؛ أو ضيّعاه لي من حقٍّ، أو قصّرا بي عنه من واجب، فقد وهبته لهما وَجُدْتُ به عليهما. ورغِبتُ اليك في وضعِ تبعته عنهما؛ فإنّي لا أتّهمهما على نفسي ولا أستبطئهما في بِرّي، ولا أكره ما تولّياه من أمري».

٢-٣: السلوك مع الذات في الصحيفة السجّاديّة

في الأدعية التي يقصد بها الإمام السجاد عليه السلام نفسه ثَمّ نقطتان:

الأولى: أننا يمكن أن نفهم من بعض الأدعية طبيعة رؤية الإمام عليه السلام ازاء المنزلة والمقام الذي ينبغي للإنسان أن يقصده لدىٰ توجّهه وكلامه إلىٰ ربّه المتعال. فالدعاء يعني تكلم ابن آدم مع الله، أو لنقل تكلم الدّاني الذي هو الانسان اليٰ العالي الذي هو الله تبارك اسمه، وذلك يتمّ حين يجعل الإنسان لنفسه موقفاً خاصّاً لدىٰ توجهه وتكلّمه إلى الله سبحانه.

أمّا لو تصوّر الإنسان لنفسه رتبةً موازية لله عزّ وجلّ! أو كان جاهلاً لقواعد وأصول وأخلاق طلبه إلىٰ ربّه، أو كان جاهلاً لفقره و احتياجه الوجودي و الأبدي إلىٰ خالقه... أو كان هذا الانسان متجاهلاً وغير ملتفت إلىٰ هذه الحاجة وهذا الفقر، فإن الدعاء لا يقع أساساً، وإنما الدعاء يكون ضمن مسار الإحساس بحاجة الإنسان إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ. و لتصور و إدراك هذا الإحساس بشكل أدقّ ثمّ نموذج مميّز في أدعية الصحيفة السجادية ومطلع الدعاء السادس عشر، إذ أنّ العبائر الأولىٰ في هذا الدعاء يشير إلىٰ أنّ مدىٰ إحساس الإمام السجاد عليه السلام بفقره وحاجته المطلقة - كما هو إيمانه المطلق - إليٰ ربّه سبحانه، وكيف أنه يدرك علاقته بربّه..

«اللّهمّ يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا مَن إلىٰ ذكر إحسانه يفزع المضطرّون، ويا مَن لخيفته ينتحبُ الخاطئون، يا أنس كلِّ مستوحش غريب، يا فرجَ كلِّ مكروبٍ كئيب، و يا غوثَ كلِّ مخذول فريد، ويا عَضُد كلِّ محتاجٍ طريد، أنت الذي وَسِعْتَ كلَّ شيء رحمةً وعلماً، وأنت الذي جعلتَ لكلِّ مخلوقٍ في نعمك سهماً، وأنت الذي عفوُهُ أعلىٰ مِن عقابه - وأنت الذي تسعىٰ رحمتُه أمام غضبه، وأنت الذي عطاؤه أكثرُ مِن منعه،

وأنت الذي اتّسعَ الخلائق كلُّهم في وُسعه، وأنت الذي لا يرغب في جزاء من أعطاه، و أنت الذي لا يفرُطُ في عقابِ مَن عصاه،و أنا يا إلهي عبدك الذي أمرتَه بالدعاء، فقال: لبّيك وسعديك، ها أنا ذا يا ربّ مطروحٌ بين يديك»

الثانية: أنّ فهم و إدراك حاجة الإنسان إلىٰ الله متوقّف علىٰ معرفة الإنسان نفسه.. ونصل في أدعية من الصحيفة السجّاديّة إلىٰ توصيف وجودي للإنسان، وهذه التواصيف تشير إلىٰ خصوصيات عجيبة وسرّيّة للانسان، لا يتسنّىٰ اكتشافها إلّا بعد تفكير وتبصّر عميق للحالات الإنسانية الخاصّة بالحياة.. والمقطعان التاليان من الدعاء السادس عشر من الصحيفة السجّاديّة يكشفان ويوازيان ذلك التبصر والتفكير المنشود:

«... يا الهي! فلكَ الحمدُ؛ فكم من عائبةٍ سترتَها عليَّ فلم تفضحني، و كم من ذنبٍ غطّيته عليّ فلم تشهرني، وكم من شائبةٍ ألْممتُ بها فلم تهتك عنّي سترها؛ ولم تقلّدني مكروه شنارها؛ ولم تُبدِ سوأتِها لمن يلتمس معائبي من جيرتي وحَسَدةِ نعمتِک عندي... ثم لم ينهني ذلك عن أن جريتُ إلىٰ سوء ما عهدتَ منّي...»

في هاتين الفقرتين،

أوّلاً: أنّها تشير إلىٰ أنني - كإنسان - يمكن أن أصاب و أتعرّض الىٰ معايب هي كثيرة لا ريب، ولم يطّلع عليها من الناس غيري.

وثانياً: أنّ هذه المعايب تنتهي الي سلوك من قبلي؛ وإن كان سلوكاً خفيّاً، ولو أنّ غيري اطّلع عليها؛ لم يبقَ لي شيءٌ من ماء وجه وكرامة، ولتسبّبت في فضيحتي بين الناس ولعيبت شخصيتي.. وإنّ بقاء هذا الستر عليّ وعدم الافتضاح عائد إلىٰ القانون الذي جعله الله تعالىٰ وسنّه لعباده الخاطئين.. إذ هو أراد لي أن أكون حرًّا مختاراً في الخلوات، لأختار ما أرغب، ولكنّني أسأت التصرّف والاختيار، فأسأتُ مرّة أخرىٰ إلى الخلوة وقانونها..

و ثالثاً: أنّ من بين الذين يعرفونني ثَمّ أفراد يرغبون يجرح شخصي وشخصيتي بداعي الحسد والتشهير بي وعدم الإنصاف تجاهي، ولكن الله وستره عليّ لم أفتَضح بين الناس ولم تتحقق رغبات المناوئين لي و المتربّصين بي.

وفي الدعاء العشرين من الصحيفة السجادية - وهو المعروف بدعاء مكارم الأخلاق - يمكن تلمّس نقاطٍ عدّة فيما يرتبط بمعرفة الإنسان...

« اللّهمّ صلِّ على محمد وآله ... وأوسع عليّ في رزقك، ولا تَفْتنّي بالنظر، وأعزّني، ولا تبتليَنّي بالكِبْر، وعبّدني لك، ولا تُفسد عبادتي بالعُجب، وأجْرِ للناس علي يديَ الخيرَ، ولا تمحقْهُ بالمنّ، و هبْ لي معاليَ الأخلاق، واعصمني منَ الفخر...»

نرىٰ الداعي هنا يطلب من الله في هذا الدعاء القوّة، والاستغناء عمّا في أيدي الغير.. لا سيّما وأنّ الإنسان الفقير شاء أم أبىٰ يضطرّ إلىٰ مدّ يد الاستعانة و البذل المالي للآخرين، ومن هنا، وجدنا الإمام السجاد عليه السلام - يعلّم هذا الفقير - أن يطلب العون من الله تعالىٰ والاستغناء به عن بني البشر - لا سيّما السيّئون منهم - وحيث أنّ كثيراً من الأغنياء يسقطون في حضيض الغفلة والذنب؛ بل ويشعرون خطأً بالاستغناء عن الله تعالىٰ، وجدناه عليه السلام يقول: «ولا تبتلني بالكبر، وعبدّني لك» والإحساس هذا يولّد في الانسان الغفلة عن استثمار النعم والاستعانه بها للرقيّ الإنساني و الأخلاقي... وعلىٰ هذا؛ يطلب الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الدعاء - التورّع عن الامتناع من استثمار النعم الربّانيّة، فهو عليه السلام يستعين بالله ويقول: «ولا تفسد عبادتي بالعجب، وأجرِ للناس على يديَ الخير، ولا تمحقْهُ بالمنّ...»

٣. أدب الدعاء في الصحيفة السجّاديّة

لا يمكن لكيفيّة التحدّث إلىٰ الله تعالىٰ بالنسبة إلىٰ الإنسان الذي يتصوّر ربّة كائناً شبيهاً بالإنسان أن تكون مسألة مهمة. و إنّ كثيراً من الكتّاب والمنظّرين الذين يهاجمون الأدب الديني لدىٰ معارضتهم للموحّدين، ترىٰ أول مسعاهم بهذا الصدد أنّهم ينزلون الله عزّوجّل إلىٰ مرتبة الإنسان البسيط، وتراهم يحرصون كلّ الحرص علىٰ تغليف آرائهم وحرصهم هذا بصور وأساليب شتّىٰ... وواضح أنّ هذا المنحىٰ التافه فيما يرتبط بالله سبحانه و تعالى، لا يمتاز الحديث معه و لا المثول في محضرة يشكل مسألة ذات أهمّيّة... ولكنّنا إذا آمنّا بالله كموجود أسمىٰ من مستوىٰ الإدراك البشري وكونه منزّهاً عن الضعف والعطل والوهم الذهني وأمعنّا الفكرة في هذا الإطار.. فإنّنا نكون قد اقتربنا شيئاً

ما من تصوّر الإمام السجاد عليه السلام وموقفه من الربّ العلي العظيم... و تمكّنّا- إلىٰ حدٍّ ما- من إدراك أهمّيّة كيفيّة تحدّثنا مع الله تعالىٰ حسن الدعاء والمناجاة...

وبهذا؛

أولاً: يتيسّر لنا التأمّل في تواصيف الإمام زين العابدين عليه السلام لأسماء وخصائص الإله الواحد الأحد وكيفية علم التحدّث إليه ومناجاته. و كنموذج علىٰ ما نذهب إليه؛ لنا أن نطالع المقطع العاشر من الدعاء الثامن والعشرين فنقترب شيئاً ما من النظرة التي ينطلق منها الإمام عليه السلام إزاء الله سبحانه وتعالىٰ:

«...لك يا إلهي وحدانيّة العدد، وملكة القدرة الصمد، وفضيلة الحول و القوة، ودرجة العلوّ والرفعة...»

ثانياً: بالتأمل بهذه الشاكلة من المقاطع، نصل إلىٰ قضيّة أساسيّة، وهي أنّ الله تعالىٰ له أسمىٰ ما يحتاجه الإنسان، من قبيل العظمة والعزة والقدرة والعلم والمحبوبية... وهذه المسألة - من الناحية النفسيّة - ستدفع بالداعي إلىٰ اليأس عمّا في أيدي المخلوقين وجميع ما يمتازون به، ليأمل ما عند الله ربّه، وينخرط في رحاب التوكّل عليه دون سواه. وإذا ما حصل الانقطاع عن غير الربّ العظيم، لن يبقىٰ للداعي غير الحضور في محضر الله سبحانه.. إذ هو حاضر دائماً وأبداً، و لكننا مع غيره دوماً؛ فالله في كل مكان أبداً، ونحن غافلون عنه متجاهلون له و نقضي أيامنا من دونه... ولكنّ أدراك أنّه تعالىٰ مصدر كل خير، يرد في عقيدة الامام السجّاد عليه السلام لدىٰ حديثه معه ينتهي إلىٰ جمال وجلال أدب الدعاء والمناجاة.. و إنّ المقاطع أدناه من الدعاء الثامن والعشرين من الصحيفة السجّاديّة المباركة نموذج لهذا الطراز من الحديث والدعاء:

«اللّهمّ إنّي أخلصت بانقطاعي البلغة، وأقبلت بكلّي عليك، و صرفت وجهي عمّن يحتاج إلىٰ رفدك، وقلبتُ مسألتي عمّن لم يستغنِ عن فضلك، ورأيتُ أنّ طلب المحتاج إلىٰ المحتاج سَفَهٌ في رأيه؛ وضَلَّةٌ من عقله.. فكم قد رأيتُ يا إلهي من أناسٍ طلبوا العزَّ بغيرك فذلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، و حاولوا الارتفاَع فاتّضعوا..»

والقضية الأخرىٰ في باب أدب الدعاء والمناجاة والمسألة وتنبغي ملاحظتها وأخذها بنظر الاعتبار؛ هي: ضرورة فهم موقع ومرتبة الإنسان في الوجود؛ وطبيعة علاقته ونسبته إلىٰ الله عزّوجلّ.. وذلك أنّ كل انسان يتصوّر نفسه منشأً للخير و الشوكة والقوّة والمعرفة، لن يسعه فهم علاقته ومرتبته إزاء الله سبحانه، و إنّ إدراك حاجة الإنسان المخلوق إلىٰ الله الخالق، يرتقي بالانسان إلىٰ أسمىٰ درجات الأدب والاخلاق؛ ويفتح أمام ذهنه وعينه آفاق الوجود المعنوي أمامه.. و كمثال؛ قد جرت الإشارة إلىٰ بعض وجوه الضعف وحاجة الإنسان في الدعاء الثالث والخمسين، إذ صار الحديث فيه عن الربّ الذي كان وجوده وجود القوة المطلقة والجديرة بالحمد والثناء:

«مولاي! وارحمني إذا انقطع من الدنيا أثري، وامَّحىٰ من المخلوقين ذكري؛ وكنتُ مِن المنسيّينَ كمَنْ قد نُسي.. مولاي! وارحمني عند تغيُّرِ صورتي و حالي إذا بَلِيَ جسمي و تفرّقتْ أعضائي وتقطّعتْ أوصالي. يا غفلتي عمّا يرادُ بي... مولاي! وارحمني في حشري ونشري..»

إنّ هذه الصورة التي يرسمها الإمام السجّاد عليه السلام تشير إلىٰ ما ينبغي أن يكون موقف الإنسان في ربّه، وكيف هو مقامه في العالم.. إن فقره وحاجته وجميع شؤون وجوده المفعم بالحاجة والاحتياج يلزم أن يقدّمه الإنسان الداعي بين يدي ربّه المتعال الذي كلّه غنىً واستغناء وقدرة وعلم.. وهكذا يراعىٰ جانب الأدب في الدعاء والمناجاة.. وهكذا تتشكل مفردات الدعاء في هكذا ظروف معنويّة ومعرفيّة وباطنيّة.. وهي الطافحة بها نصوص الصحيفة السجادية المباركة... و إنّ هكذا نصوص تشير وتكشف لنا عن أنّ الدعاء لا يكون أن يكون تصنّعاً ولا يسعه أن يكون نفاقاً.. إنّ الدعاء والمناجاة التي يدلي بها إمامنا السجاد عليه السلام في صحيفته المقدّسة لها من التأثير البالغ جداً بما يخلق في الداعي الواعي الناضج تأثيراً عظيماً على ذاته ومجمل حياته.. فهو من جهة استلهام كان الإمام عليه السلام قد تلقّاه عن ربّه الجليل، ومن جهة أخرىٰ تصوّر منه باعتباره عبداً مملوكاً لسيّده و مولاه ذي الجلال والإكرام..

٤- المسؤوليّة الاجتماعيّة في الصحيفة السجّاديّة

إنّ الأخلاق والمُثُل المستوحاة من نصوص أدعية الصحيفة السجّاديّة ليست أخلاق العُزلة والانكفاء، بل هي أخلاق التعامل والمعاشرة، وفي خضمّ هذه الأخلاق وجملتها يعدّ التقصير في أداء الوظائف الاجتماعيّة ذنباً وخطيئة.. وفي أول مقطع الدعاء الثامن والثلاثين جرىٰ طلب المغفرة لهكذا تقصير:

«اللّهمّ إنّي اعتذر إليك مِن مظلومٍ ظُلم بحضرتي فلم أنصره، ومِن معروف أُسْدِيَ إليَّ فلم أشكرْه، ومِن مسئ اعتذر إليّ فلم اعْذِره، ومِن ذي فاقةٍ سألني فلم أُوثره، و مِن حقّ ذي حقٍّ لزمني لمؤمن فلم أوفّره، ومِن عيب مؤمنٍ ظهر لي فلم استره، ومن كلِّ إثمٍ عَرَضَ لي فلم أهجره.. اعتذر إليك يا إلهي منهنّ ومن نظائرهنّ اعتذارَ ندامةٍ يكون واعظاً لما بين يديّ من أشباههنّ...»

و إنّ الموارد التي يحصيهنّ الله للمسؤوليّات الاجتماعيّة جديرة بالتأمُّل، موارد من قبيل السكوت إزاء ظلم الآخرين، عدم عرفان اللّطف والإحسان، عدم قبول عذر المعتذر، عدم إيثار ذوي الفاقة والمحتاجين، تضييع حقوق ذوي الحقوق، عدم ستر عيوب المؤمنين... هذه وأشباهها موارد و نماذج يُعدّ تركها تركاً للأولويّة في فعل الخير؛ لا ذنباً.. مضافاً إلىٰ أنّ بصيرة الإصلاح الاجتماعي لا تغادر ذهن ووجدان الإمام السجاد عليه السلام.. وهو طالما طلب من الربّ المتعال إصلاح المجتمع الذي يتيسّر بحضور إمام صالح طاهر معصوم...

قال عليه السلام في بعض مقاطع دعاء عرفة الشريف:

«اللّهم فأوزعْ لوليّک شكر ما أنعمتَ به عليه، وأوزعنا مثله فيه، وآته من لدنك سلطاناً نصيراً، وافتح له فتحاً يسيراً، واَعِنْهُ بركنك الأعزّ، واشدُدْ أزرَه، وقوِّ عَضُدَه، وراعِهِ بعينك، واحْمِهِ بحفظِکَ، وانصُرْه بملائكتك، وامْدُدْه بجندك الأغلب، وأقم به كتابك و حدودَك وشرائِعَكَ وسُنَنَ رسولِك، صلواتك اللّهمّ عليه وآله، وأحْيِ به ما أماته الظالمون من معالم دينک، وأجْلُ به صدأ الجور عن طريقتك، وأبِنْ به الضرّاء من سبيلك...»

٥. سيرة وشخصية الإمام السجاد عليه السلام والعلاقة مع الصحيفة السجّاديّة

الإمام السجاد عليه السلام - كما تمّت الإشارة - قد تحمّل في فترة شبابه مصائب يعجز كل إنسان - غير معصوم - عن تحمّلها. وقد ورد أنّ الإمام السجاد عليه السلام عاش بعد واقعة كربلاء الفجيعة أربعةً وثلاثين عاماً.. ولم تُمح مرارة وآثار المصيبة عن روحه ونفسه الطاهرة أبداً.. فكان كلّ أمر بسيط قد يواجه الناس أثناء حياتهم العادية، كان يستدعي لدىٰ الإمام زين العابدين عليه السلام مصائب عاشوراء... و تروي لنا صفحات التاريخ أنّ مجرّد شرب الماء وتناول الطعام وتذكية الحيوانات كانت تدفع بالإمام عليه السلام إلىٰ البكاء والعويل، إذ يستحضر بها صور و آلام عاشوراء.. ومن هنا؛ فإنّ الإمام الذي عاش بعد واقعة عاشوراء أربعاً وثلاثين سنة، كان لا ينفكّ عن استذكار و إحياء مشاهد المصيبة الحسينية الراتبة.

ومن جهة أخرىٰ، ورغم أنّ الأمويين الجناة كانوا يتظاهرون بايلاء الإمام السجاد عليه السلام شيئاً من الاحترام باعتباره كبير الهاشميين.. إلا أنه لم يكن ليخفىٰ علىٰ أحدٍ أنّ هؤلاء الأمويّين أنفسهم لم يكونوا ليتسامحوا إزاء أيّ خطوة وحركة يُشمَّ منها رائحة الاعتراض علىٰ ما كانوا يقترفونه من ظلم.. والتاريخ ليخجل كلّ الخجل ممّا كانوا يقترفونه من اضطهاد و إبادة مطلقة لمعارضيهم ولو بالكلمة.. ومنذ سنة (٦١) إلىٰ سنة (٩٥) هجرية، وهي السنون التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام بعد واقعة عاشوراء الأليمة: تسلّم جملة من الظالمين العتاة زمام أمور المسلمين، فلم يرعووا عن ارتكاب الفظائع والجسام من المظالم وعلى كافّة الأصعدة... ولدىٰ ذلك؛ بادر الإمام عليه السلام إلىٰ اللجوء لملجأ العبادة والدعاء والمناجاة؛ مواجهاً ظالمي عصره بالدروس التربوية والمعنوية والعقائدية التي كان يفترض بالمسلمين، إذ ذاك استلهامها وكذا التخلص من الخواء الفكري والمعنوي الذي كرّسه فيهم الحاكم الأموي المجرم...

وثانياً؛ إنّ طبيعة مواجهة الإمام السجّاد عليه السلام مصائب عاشوراء ترشدنا إلىٰ ضرورة عدم استسلام الشخص المصاب للظلم من جهة؛ و لمجرّد الرغبة في الانتقام والانهزام إمام العقد النفسية البغيضة من جهة أخرىٰ، بل إنّ العكس هو الصحيح... إذ يفترض بالشخص المظلوم أن تكون له مواقفه الناضجة الواعية؛ متزوداً المعنوية والروحانية

اللّازمة، وأنعم و أكرم وأعظم بالدعاء واللجوء إلىٰ الله القوي المنتقم سلاحاً يمكن للمظلوم أن يحمله في مواجهة الظالم.

إنّ الإمام السجاد عليه السلام بعد واقعة عاشوراء كان له أن يصبح واحداً في شخصين؛ إما أن يكون كابنه زيد الشهيد عليه السلام، فيختار المواجهة المسلّحة ضد الأمويين، ممّا كان ينتهي به الأمر أن يكون ضحيّةً للرغبة في الانتقام من الظالمين.. وإمّا أن يكون فرداً منعزلاً منكفئاً على نفسه، وإذ ذاك كان للمسؤولية القيادية الملقاة على عاتق المعصوم أن تصير إلىٰ غياهب المجهول...

ولكنّ الإمام السجاد عليه السلام اختار - بأمر الله تعالى - الطريق الثالث، أي: طريق مجاراة ومداراة المصيبة الحسينية والعمل على التأسيس لمرحلة جديدة من مراحل تكريس الثقافة والعقيدة المحمدية العلوية في نفوس من يوفّقهم الله تعالىٰ إلىٰ الإيمان والولاية... وهي المرحلة التي توصف بالمرحلة التمهيدية لعصر المواجهة الثقافية والصراع العقائدي الذي تجلّىٰ في حياة الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام.. بعد أن فقدت الأمّة - بقتلها الحسين عليه السلام - مصداقيتها علىٰ الإطلاق وضيعت كلّ قيمها - وأباحت نفسها للأمويين المنافقين بالمجّان.

وثالث النقاط بخصوص شخصية الإمام السجاد عليه السلام أنّ نظرته إلىٰ الأخلاق كانت نظرة منبثقة عن موقفه إزاء الحقّ والباطل. إذ كما أنّ تجلّي الحق من حيث السلوك يتحقّق في قوالب ومسالك الخير، فإنّ فقدان الحقّ - الذي نسمّيه باطلاً - يتجلّىٰ في قوالب الرذائل الأخلاقية المقيتة.

والإمام عليه السلام قد استثمر - لدىٰ مواجهته مظالم الأمويّين وأجواء وظروف الضغط السياسي الخانق - الخير والأخلاق الفاضلة... وكما تمّت الإشارة إليه و لم يبادر إلىٰ استعمال الوسائل التي يسخّرها أهل الباطل والشرّ في أحقادهم و سفكهم للدماء... و عليه؛ فقد استفاد عليه السلام من وسائل الخير لإعلاء كلمة الحقّ.. وهذا يعني أنّنا لا نستطيع العمل ضمن مبدأ الشيطان القائل بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة، فستعمل وسائل الشر لأجل الانتصار للحق...

ثمّ في البين نقطة جديرة بالتأمّل، وهي: هل أنّ المراد من أنّ الإمام بامتناعه عن سفك الدماء والثورة ضد الأمويّين، يمنعنا من مواجهة الظلم؟ لا ريب في أنّ الإجابة سلبية... لا سيّما أنه عليه السلام لو كان واثقاً من نصرة المسلمين إيّاه؛ ما قعد لحظة واحدة عن المبادرة إلىٰ اقتلاع الأمويين في جذورهم، ولمّا سكت طرفة عين أبداً، ولنشر لواء الفتح في ربوع البلاد.. ولكن في الظروف التي يعرف منها الخذلان سلفاً، وعدم استحقاق الرعية سفك الدماء لأجلها بدءاً، فإنّ فى العقل والمنطق والشرع أن يختار الإمام عليه السلام طريقاً غير طريق المواجهة المسلحة، وهي التي كان من المؤكّد لها أن تنتهي إلىٰ مزيد الاضطهاد وإراقة الدماء و انتهاك الأعراض.. وهي الولاية الحقيقية التي انتهت عندها مظالم الأمويين والعباسيين الذين ما كانوا لينتهوا عن ممارسة سلب الحقوق والتجاوز علىٰ كل ما هو خير...

والمسألة الأخيرة؛ أنّ الروحانية طافحة من بين أوراق الصحيفة السجادية المقدسة... فهي داعية إلى الأخلاق الفاضلة، و إلىٰ تكريس الصحة النفسانيّة التي تشكل بدورها أرضية الأخلاق الصالحة... وهذا بمعنىٰ أنّ العبادة والدعاء والمناجاة إن حصلت بتأمّل ذهني وأحاسيس طيبة، كانت ثمرتها سلوكاً أخلاقياً نزيهاً وتوفيقاً إلهياً دائماً نحو الخير والصلاح.. وإذا ما رغبنا بمراعاة جانب الاحتياط ولم نقل إنه مع عدم الصلاة والدعاء لا يحصل التكامل الأخلاقي ولا يتيسّر، فإنّنا يسعنا القول إنّ كثيراً من الناس ومع مشاربهم الكثيرة المتفاوتة، لا سيّما الذين يعدّون الأخلاق نوعاً من منظومة المعتقدات المعنوية.. فإنّ ترك الصلاة والدعاء إن لم يوجب الانحطاط الاخلاقي؛ فهم - لا ريب - مانع كبير دون تكامل الشخصية الأخلاقية.